حافظ الراوية

للأستاذ محمد هاشم عطية

فى هذه الفترة من نهضتنا الحاضرة لم يقتصر شاعرنا الكبير على ما أذاعه من آثار عبقريته فى أشعاره الخالدة ، ولكنه استطاع أن يستأثر بنصيب غير قليل من تلك المعونة الطيبة التى كانت موجهة من كل ناحية لأحياء اللغة ونشر آدابها العالية . ومحاولة الاسترداد لبعض ما سلبته من مجدها القديم فى عصورها الزاهرة ، (فى أوائل هذا الجيل تطلعت الأنظار إلى الشعر العربى ، وأصغى أبناء العربية إلى ما تدوى به منابر الأمصار الكبرى فى بلاد المشرق ، وما يسيره فحول شعرائها من شوارد القريض ، حتى أوشكوا أن يعيدوا إلى الأذهان ما كان للشعر والشعراء فى دور الأمراء ، وقصور الملوك ، أيام ازدهار الخلافة . واستبحار العمران العربى فى الدولة ، وفى ذلك الوقت كان الناس لا يزالون يتخذون مجالسهم فى صحون الدور ، ومناظر المنازل ، وتقوم الليالى الساهرة فى كثير من قصور السروات على بغاة الحديث والسمر ، الذين يتطرفون بما كان يدور فى هذه المجامع الراقية من المجاذبة والبوادر المرتجلة ، والطيب المأثور عن أمثال حافظ ، والبابلى ، والمويلحى ، أولئك الذين كان اجتماع ثلاثتهم فى وقت واحد يعد حقاً منقبة نادرة فى تاريخ مصر الحديث ، حتى سعى المتأدبون والظرفاء إلى حلقاتهم ، وطلبوهم فى مظانهم ، وتنفقوا عندهم بكل موهبة ، وتطيبوا لهم بكل فن ، وتنبه الناس فى تقليدهم الأدبى إلى مسلك البارودى ، وحافظ ؛ فى الاحتفال باللفظ ، والتوخى لجزالة المنطق ، والإيثار لجلالة العبارة ؛ وكان حافظ إمام هذه الطبقة فى الاستظهار لجيد الشعر ، والمعرفة بأوابد المتكلمين ، ومقامات البلغاء ؛ وكان طويل الملازمة لآثار عشرة من أعيان شعراء العربية أكثر من غيرهم من شعراء العصور الأخرى ، لا نعلم أنه اجتمع أمثالهم فى نحو قرنين متعاقبين من الزمان لأهل لغة من لغات العالم ، وهم :

بشار ، وأبو العتاهية ، ومسلم ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحترى ، وأبو الطيب ،

وأبو العلاء ، وابن الرومى ، والشريف الرضى ؛ ـ فملأ المحافل بفرائدهم ، والتنويه ببلاغاتهم ، وحمل تلاميذه والمنتحلين لمذهبه على الشغف بدراستهم ، والتفقد لمعانيهم ، وكان أكثر المتأدبين فى ذلك الوقت من نشأ هذا العصر إنما يلمون بالمتداول المشهور عن هؤلاء ، من مثل ، أو حكمة ، فى بيت أو بيتين أو أكثر من ذلك مما لا يبلغ أن يكون قصيدة ، ويدق عن فطنهم فى الجملة ما لهؤلاء العرانين من المنخول المهذب ، والموصوف المبتهل ، من حر القول ، وصريح الكلام ، وقد يكون بين أيديهم فى الكتب ، وفيما يطالعونه من الدواوين ، وهم يمرون به لا يعرفونه ، ولا يقدرون على استخراجه ، إذ كان ذلك إنما يقع من عمل البصيرة القادرة ، والخاطر الثاقب ، ومن طول التلبث فى أعقاب الكلام ، ولطف الترقب لمخارج المتكلمين ، مع الاستعانة بالملكات الموهوبة ، والروية القوية ، وطول التجلد على التكرار والمراجعة ، مما كان لحافظ منه حظ قلما شركه فيه أحد من معاصريه ، فأخذ (رحمه الله) بهذه الدراسة العالية ، والمطارحة المشهودة ، يثير العزائم إلى احتمال أمانة اللغة ، ويستكثر حوله من عشاق الأدب القديم ، ويصنع فى مصر صنيع أئمة الرواة فى « بغداد » أيام كانت مدرسة الدنيا ، وعاصمة العالم فى عهود مجدها الذهبية ، بالإملاء من ذاكرته ، والقراءة من غيب صدره ، لكل جديد فائق ، ولكل بيت عين ، ولكل محبرة مطولة ، أو مقطوعة من محاسن أولئك الشعراء ، وكانت طريقته فى ذلك كما يعرفها من كانوا يداخلونه أو يعيشون بعض الوقت معه فى داره ، أنه فى الغالب يزيل تجاليد الكتب ويتخذ منها كراسات صغيرة يخف عليه تناولها فيما يتفق له من الأحوال : قاعداً ، أو قائماً ، أو متكئاً على وسادة ، أو مستلقياً فى فراش ، ثم يفرغ منها وقد وعاها ، وألم بما نبه السلف عليه من عيبها وجمالها ، وأضاف إلى ذلك من عنده ما يقع فى نفسه ؛ ويتكرر ذلك منه .

وكان (رحمه الله) من أدرى الناس بمناقب الكلام ، وأفرسهم بالبيت من الشعر ، فيغدو أو يروح على الناس وما يكاد يلقاه صديق ، أو يضمه مع جماعة مجلس ، حتى يبتدر الكلام ، لا يحتال على فرصة ، ولا يجتهد فى طلب مناسبة . وقد

يرافقهم فى الطريق ، أو يعارض المارة منهم ، أو يناديهم إذا رآهم من كثب ، وكان يحمد رأيهم فى النقد ، ومعرفتهم بالأدب ، ليسمعهم ما قرأه اليوم مثلا لبشار الذى يعرفون من بائيته قوله المشهور :

وَمَن ذا الذى تَرْضى سَجاياهُ كلها كفى المرء نبلا أن تُعدّ معايبه

ثم يعرض منها أروع ما تضمنته من تصوير الجماعة من الوحش فى البادية تشكو لجابها أو قائدها بما ظهر فى عينها من الانكسار والفترة - ماناها من شدة العطش والحر إذ يقول :

ولما تولى الحر واعتصر الثرى لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى إلى الجاب إلا أنها لا تخاطبه

ثم لا يزال يعجبهم من حسنه . ومن القدرة على تمثيله ، وهو فى خلال ذلك يلقى على ما ينشره من جهارته ، وحلاوة أدائه ، وإشباعه لإملائه ، ما يبهر العقول ، ويستخف إلى طلب المزيد . وقد يدير الحديث إلى أبى نواس ، وكان مخصوصا به ومداحا له ، فيكثر منه حتى يكون آخر ما يتمثل به من شعره أبيات فى خمرية له لامية ينتصر فيها لمثل الآراء المتطرفة من مذاهب الثوريين فى زماننا هذا ، وهى قوله :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفة يقوم سواء أو مخيفَ سبيل
بكل فتى لا يُستَطَارُ جنانه إذا نوه الزحفان باسم قتيل
لِنَخمسَ مال الله من كل فاجر أخي بِطنَةٍ للطيبات أكول
كفى حزناً أنَّ الجَوَادَ مُقتّرٌ عليه ، ولا معروف عند بخيل
ألم تر أن المال عون على التُقَى وليس جواد مُعْدِم كَمُنيل

وكثيراً ما كان يقتضب هذا الترسل بالإلقاء لبادرة ، أو الانتهاز لغميزة يتضاحك بها أهل المجلس ، ويتمالحون عليها ساعة . وقد يتلاحق ذلك من غير واحد منهم ، ثم يعود بهم إلى ما كانوا فيه ، أو يقومون إلى ما أعد لهم من طعام أونزل ، وتراه فى مقام آخر يمضى إلى أبى تمام ، وكان يتولاه ويؤثره ويقدمه ، فيعدل عن مشهوراته كقصيدته .

« السيف أصدق أنباء من الكتب »

وكالأخرى :

« كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر »

إلى طواله وأعيان شعره فيتقلب بين قوافيه ، من قوله :

« على مثلها من أربع وملاعب »

وقوله :

« غدت تستجير الدمع خوف نوى غد »

حتى يصل إلى مثل قصيدته :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وهى من أعاجيب أبى تمام ، فيطيل وقفته لها ، حتى إذا وصل إلى ذم الأفشين فى قوله منها :

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسار
كسيت سبائب لومه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار

قرظه واستحسن اغتراب النعمة عنده :

وكنا حوله ليلة وهو يتغنى بهذه القصيدة على طريقة جماعة المتكسبين بالأشعار العامية ، فبلغ إلى قوله منها :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدى السموم مدارعا من قار
بكروا وأمروا فى متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبداً على سفر من الأسفار

ثم التفت إلى الحاضرين ثم قال : « ماذا يصف الشاعر بهذه الأبيات ؟ » فقائل يصف خيلا ، وقائل يصف جيوشاً ؛ وآخر يقول فرساناً ، فتهانف بهم ثم قال : لا ، بل يصف مصلوبين ، أرأيتم كيف اقتيدت جذوعهم من مربط النجار . وسأله سائل عن حديث أبي تمام مع ابن الصباح الفيلسوف الكندى فى اعتراضه على ما جاء فى سينيته للمعتصم :

« ما فى وقوفك ساعة مِن بَاسِ »

حين شبهه بأشراف العرب ، واستخف بذلك الكندى فى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

وما ارتجله بديهاً من قوله :

لاتنكِروا ضَرْبى لهُ مَنْ دونَه مَثلاً شرُوداً فى النَّدى والبَاسِ
فاللهُ قدْ ضَرَبَ الأقلَّ لِنورِهِ مَثلا مِنَ المِشكاة والنبْرَاسِ

وبعد أن أجابهم عدل بهم عن هذا المشهور من القصيدة إلى قوله منها :

إنَّ المَنازلَ سَاوَرَتها فُرْقة أخلتْ منَ الآرام كلَّ كِناسِ
منْ كلّ ضَاحِكة التَّرائب أرهِفتْ إرْهَافَ خُوطِ البَانة المَيَّاسِ
بَدْرٌ أطاعتْ فِيكَ بادِرَةَ النوَى خطأ وشمس أولِعَتْ بشِمَاسِ
بكرٌ إذا ابتسَمَتْ أرَاكَ وميضُها نورِ الأقاحِ برَملَةٍ مِيعَاسِ
وإذا مشتْ تَرَكتْ بقلبكَ ضعفَ مَا بحليِّها مِنْ كثرةِ الوسوَاسِ

ولا يدع أبا تمام قبل أن ينشد قوله لأبى سعيد بن يوسف من أمراء الثغور من قصيدة أطلاَلهُمْ سُلبت دُماها الهيفا

لكَ هَضْبَة الحِلم التى لو وازنتْ أجأ إذاً ثقلت وكان خفيفاً
وَحلاوة الشيَم التى لو مازجتْ خلقَ الزمانِ القَدْمِ صارَ ظريفاً

أما ما أذاعه حافظ للبحترى ، وأبى الطيب ، والشريف ، والمعرى ، فيضيق علينا المقام لو حاولناه ، وفيما تناولناه إشارة ، وبهذا وأشباهه سيّر حافظ هذه الأشعار فى طبقات المتعلمين ، حتى فشا فيهم يومئذ التظرف بالأدب ، والتحقق بالرواية ، وكثر الانتحال لكلام المتقدمين ، والتجمل بأدب الأوائل ؛ حتى أوشك أن يكون بين الناس من يستحقون بعد قليل أن نسميهم طبقة الرواة والمحدثين من حفاظ الأدب ونقلة الأخبار ، إلى أن كانت أواخر أيامه — رحمه الله — وفرغت نفسه من الرغبة فى الناس ، وحبسته العلل عن محاضرة المجالس

وسكت أيضاً عن قول الشعر ، وافترن ذلك بما ملئت به دروب القاهرة وأحياؤها من المشارب ، والمسارح ، وازدحمت هذه الكثرة من المجلات والصحف ، وانتهب الناس بعضهم من بعض ، وتقاضتهم مظاهر الحياة الجديدة كل ما لديهم من فراغ وعمل ؛ فبطل السمر فى الدور ، وعطلت مناظر القصور ، وانصرف الناس عن هذه المذاكرة ، وكسدت سوق المطارحة ، وعادت الوحشة من الأدب القديم تدب إلى الاجتماع ، حتى ماترى إلا قليلا من له ذاكرة واعية من الأدب ، أو ذخيرة صادقة من العلم ، وصار حقاً علينا من هذا المنبر أن نبكى فى حافظ وفاءه للعربية ، وأن نكرمه بإحياء مذهبه فى الرواية ، لنرضى الله ونرضى حافظاً فى ثراه .

محمد هاشم عطية